بين الضحك والبكاء

للدكتور احمد زكى

يُسرّ الانسان لأمر ، لمنظر واقع حاضر يُمتّعه ، أو لذكرى طيبة ماضية يسترجعها ، أو لفكرة يؤلفها خياله لا تتصل الى الكائن الراهن بسبب ، فلا يلبث أن ينتقل هذا السرور الذى بروحه الى جسده ، والوجه أكثر أجزاء الجسد تخصصاً فى إظهار الآثار الروحية ، والكشف عن انفعالات النفس الخبيئة ، وهو يفعل ذلك بقبض العضل وبسطه ، وتقصيره وتمديده ، وبالتأليف فى كل هذا بين مجموعات منه متخالفة . فقد تنبسط الأسارير ، وقد تفتر الشفاه ، وقد تنفتح انفتاحا ويصحبها انطلاق الهواء من الرئة واندفاعه اليها بسرعة تزيد على سرعة الزفير والشهيق كثيراً فتحدث القهقهة . وقد ينقلب سرور النفس الى ثورة تعم الجسد كله .

وقد حاول كتاب تفسير الضحك . قال أحدهم إنك تنظر الرجل تزل قدمه فى الطريق فينقسم الى أجزاء ثلاثة أو أربعة فتضحك لأنك تقرن نفسك به دون قصد ، فتحس بالتفوق والعلو ، فيسرك « المجد الذاتى الباغت » . وردّ « شوبنهور » أسباب الضحك الى تناقض بين أجزاء الصورة أو تعارض غير مألوف بين معانى الفكرة الواحدة ، على أن يكون إدراك

فنقل الوسيط بطريق التلباثى ، ثم طرق المائدة بقوة مستمدة من العقل الباطن للوسيط .

ويشبه يرى وجوب البحث الجدى فى تلك الظواهر ، وجمع المشاهدات ووصفها بدقة علمية ، ولكنه لا يرى التعجل بنسبتها الى مصدر روحى ولدج يرى أن مشاهداته الخاصة قد تركته على تمام اليقين من وجود المصدر الروحى . أما الذى لا خلاف بينهما عليه ، فهو أن هناك ظواهر نفسية وآلية شاذة غريبة تتطلب جيوشا من الباحثين ».

عبد المنعم على حسين
خريج جامعة برمنجهام

دلك سريعا . وقال « برجسن » : إن سبب الضحك أن تتعطل فى المضحوك منه الارادة اليقظة الموجّهة القاصدة ، فيأتى أفعالا لا هيمنة للعقل عليها ، ومثل ذلك الزلّق وما يحدث من الغافل الذاهل ، ومن السكران الذى فقد السيطرة على أعضائه . كل هذه لا شك أسباب تكون للضحك ، ولكن لا شك أيضا أن هناك أسبابا عديدة أخرى ليس من السهل الميسور تحديدها أو تعريفها .

وبقدرما تتعدد أسباب الضحك تتعدد أنواعه ، فالضحكة قد تضيق وقد تستعرض ، وقد تسرف فى الضيق كما تسرف فى الاتساع ، وقد تتخذ أوضاعا عدّة بين هذا وذاك ، وهى فى جميعها ضحكة بسيطة خالصة نشأت عن سرور بسيط خالص . ولكن قد تكون الضحكة عن ألم شديد وحزن عميق يحدث فى النفس توترا لابد من إرخائه ، وتأزّما لابد من تفريجه ، وتركزاً فى طاقة البدن لابد من تخفيفه ، وضغطاً حاراً تحسه فى القلب أو بين الاضلاع لابد من انطلاقه ، فان كان معتدل الكمّ انطلق من مخارجه المعتادة ، من الشؤون فى العيون ، وان ضاقت عنه تلك المخارج أو عزّت طلب سبلا غير معتادة فكان حزنا ضاحكا ، فالضحكات كالدمعات ان اختلفت أصولها فقد اتحدت مراميها

وكما يضحك الباكى فكذلك يبكى الضاحك ، فالضحك والبكاء صنوان . كلاهما فيض الكأس عند الامتلاء ، كلاهما فضل الطاقة الفسلجية الخبيئة كالتى يفيض بها جسم المحموم عندما تنكسر حماه بعين قطرات تبكيها مسامّ الجسد العديدة . فان أنت سررت وضاق صدرك بالسرور فلا تكتمه بل اضحك وازأط ، وان أمكنك فابك ، يسترح جسمك وينتعش ويستفق . وان أنت اهتممت أو حزنت أو ذاخلك الوجد المضنى فابك وأفض وافتح شئونك وسّعها ، وان أمكنك فاضحك وازأط كذلك ، وأنا ضمين لك بالعزاء وبالشفاء .

والضحكة قد تمتزج بها عواطف أخرى لا تمت بسبب الى

السرور او الى الحزن ، فقد تكون ضحكة هازئة ، أو ضحكة مرة حاقدة ، أو ضحكة غَزِلة

والانسان فى عالم الحيوان أكبر ضحاك ، وربما كان هو الضاحك الوحيد ، ويقول بعض العلماء الخبثاء إنه أكبر مضحوك منه كذلك

ومن الضحك ضحك مكنىّ آلىّ تثيره الدغدغة وان شئت « فالزغزغة » ولا أظنها كلمة تضيق بها صدور العرب وان ضاقت عنها المعاجم . وهذا الضحك الآلىّ لا يعوزه السرور الذى يصطحب الضحك التلقائى Spontaneous ولذا يعود الطفل الى طلب الدغدغة وقد كان أباها ، وذلك لما وجد فيها من الغبطة .

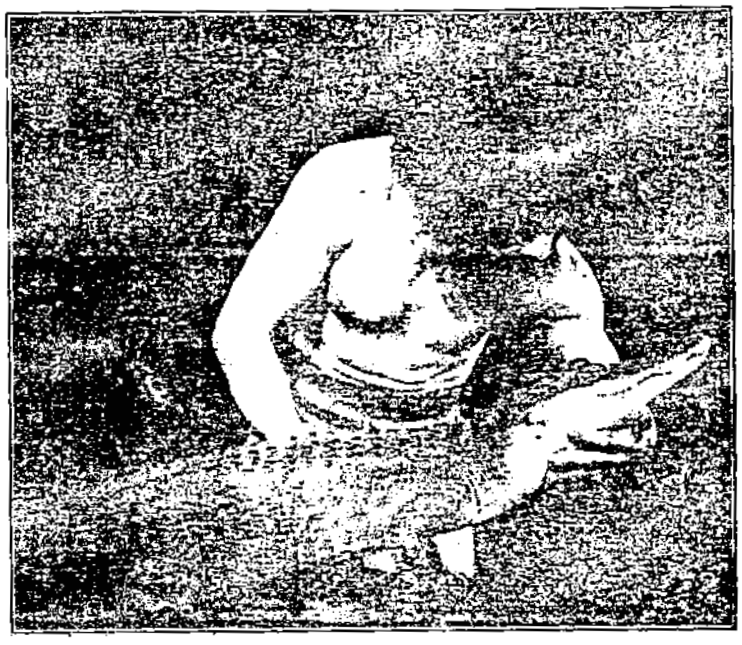

وكذلك الحيوان يتدغدغ فيحس فى الدغدغة سرورا وغبطة ، ولكنه لا يضحك ولا تجرى دموعه منها . فمن الثعابين أنواع اذا مسحت أظهرها بأناملك فى لطف ورفق سرها ذلك فاستكانت ، وان سكتّ عادت فى خشوع تطلب المزيد .

وفى جزيرة سيلان يمسكون التماسيح بالحيلة ، وحيلتهم فى ذلك الدغدغة . يلوّحون للتمساح بالطعم فى الماء ، حتى اذا استدرجوه الى المياه الضحلة ، أتاه المروّض فتمتم بعض التعاويذ ، حتى اذا اقترب منه دق رأسه بعصا دقا خفيفا متتابعا ، حتى اذا تلهّى تجرأ الصيّاد فركب كتفيه وأخذ يمسح بالأصابع جلده الاسفل اللين ، بينما اليد الاخرى تشده بالحبال

وفى الملايا يستخدمون نفس الحيلة فى أسر نوع من السمك ويسمونه « السمك الاحمق » وهو سمك كبير يعيش على بعد من سطح البحر يتراوح بين العشرة الاقدام والعشرين ، وهو يرقد ساكنا فاذا تحقق الصياد من وجوده غاص من قاربه اليه فى سكون ، وأسرع فوضع يده تحته وأخذ يدغدغه دون زعانفه : فلا يلبث أن يدخل السمك فى شبه سكرة من السرور العميق فينقاد طوعا الى سطح الماء حيث القارب وهو يحتضن الكف التى تدغدغه . ثم يسير به القارب برجاله الى المياه الضحلة من الشاطىء ، فاذا حانت الساعة انهالوا عليه بكل سكين جارح ، ومقصل حاد فقتلوه . وكم قتلة جاءت من بعد سرور ، وكم لذة خلفت حسرات .

احمد زكى